أتـما

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

أتما
بسمة الخولي
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغوي: سارة صلاح
رقم الإيداع: 2387/2020
الترقيم الدولي: 978-977-6634-41-1
طبعة : 2020

بسمة الخولي

أتـما

رواية

دارك
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من اقــترنتُ به؛ فصار شيـطان نفســي،
ومَن اقترن بي؛ فصرت قابـضة روحـه...

«أيها الشيطان الساقط من علٍ، يا حامل لذة الخطيئة..

أكان ضوءًا هو ما نثره ظلام جناحيك؟ أم سواد الأسفلين؟

أيها الملاك الهائم، يا سيد النور ..

أمحوت ظل العاصي إلى جهنم، أم كفَّاك طمَسَا خطاياهما عن أعين الغافلين؟

أيها السائر على أرض الفناء، يا ذائق الخير والشر، أعِطرُ البراءة نورُك، أم شذا الجحيم؟! »

ب . ن

إحدى الأوراق التي عُثر عليها بين مُقتنيات «يُمنى رءوف»

بتاريخ 29 يوليو 2012

كان يا ما كان؛ كانت هُناك واحـة، مُجرد أرض صحراويَّة جرداء، خلت إلا من بعض أشجار النخيل، عشب ومنزل خشبيّ صغير عاشت به امرأة وحيدة، لا تملك بدنياها سوى ثلاثة حملان..

كانت تجلس يوميًّا أسفل إحدى الأشجار المُحيطة بالواحة، تُحدِّث حملانها، تشكو إليها همومَ حياةٍ لم تعشها، تطلبُ آراءً تعلمُ أنها لن تحصل عليها؛ لكن هكذا كانت حياتها، وهي لَم تشتكِ.. تضحك وتبكي، ثم تنهض حاملة جرتها، وبضع تمرات تُطفئ جوعها، تترك الحملان الشاردة، وتعتلي تلًّا صغيراً جنوبي الواحة، ناظرة إلى الفراغ الشاسع، تتساءل عمَّا يكمُن هناك خلف ستار الرمال، عمَّا سيحدث لو قررت حمل متاعها يومًا والمضي عبر هذه الصحراء، باحثة عن حياةٍ أخرى، حياة عاشتها كثيراً بمخيلتها، تستنفد الوقت بالأمل والتأمل، ترى أحداثًا، أشخاصًا، وأماكن.. ينهكها التعب فتنام راضية عن الحياة والكون. على هذا المنوال مضت أيامها، هائمة بواقع خلقته، راضية بواقعٍ لم تخلقه لكنها وُجِدت به، حتى أتى اليوم الذي نفق فيه أحد الحملان الثلاثة، تحوَّل من روحٍ آنستها إلى كتلة من الفراء الخاوي على الأرض..

صرخت لكنها لَم تبكِ، لطمت وجهها وسقطت أرضًا جواره فاقدة الوعي، حين استيقظت صرخت من جديدٍ، حملته وحدَّثته دون انتظار ردٍّ.. لكنها لم تبكِ.

صنعت له قبرًا صغيرًا بجوار إحدى أشجار النخيل، حفرت اسمه على الجذع البني الجاف، وأهالت عليه التراب، تذكرت، فصرخت من جديدٍ، ثم مضت.. بعد يومين هرب الحمل الثاني.

لم تكن لديها فكرة إلى أين يمكنه الذهاب وسط هذا الفراغ، اعتلت التلة مؤرجحة عينيها بين شمالٍ وجنوبٍ، تبحثُ عن رفيقها الغائب، أين تُراه ذهبَ؟ أين اختفى؟ أأكله ذئب عابر؟ أوقع في شركٍ مُتحرِّكٍ من الرمال؟ بحثَتْ وتساءلت؛ لكن لا جواب، اعترتها الوحدة والحسرة، لكنها هذه المرة أيضًا.. لَم تبكِ.

ذهب اثنان، ولم يعد لديها سوى رفيقٍ واحدٍ، لم تعد المرأة تملأ جرتها أو تجمع التمرات، توقفت عن ارتياد مجلسها فوق التل والحُلم بما خلف الأفق، جلست جوار الحمل الذي بقي تحدِّثُه بشغفٍ مُتناسية حملانها الضائعة، ثم تصمت بغتةً حين يُصور لها احتمال فقدان رفيقها الأخير.. تُراقبه برعبٍ ثم تعود إلى حديثها مُتناسية من جديد؛ لكن أتى وقتٌ لم يعد بوسعها تحمُّل مزيد من الخسارة، لم تعد لديها القدرة على ابتلاع المزيد من الألم؛ لذا اتخذت قرارها..

في الصباح الباكر رقد الحمل الأخير بقبرٍ صغيرٍ جوار المنزل الخشبيّ على مشارف الواحة، في منتصف اليوم كانت قد نصبت أنشوطة من الليف فوق التل، أمامها وقفت مراقبة الأفق الأصفر، الرمال السابحة إلى ما لا نهاية، هناك خلف الأُفق عالمٌ آخر، أشخاص آخرون، حياة أخرى كُتِبَ عليها ألا تراها.

حين أتى الليل، لم تعد هُناك أصوات بالواحة، لا حملان ترعى. لا طعام. يُطهى. لا شيء سوى قبرين، وأنشوطة، وجسد متأرجح لامرأة لم تجف بعد الدماء بيديها، أو الدموع بعينيها.

ومن هُنا.. بدأت القصة...

+ظجمحع +هقع

حرّكتُ ساقي قليلًا، عقدتها أسفل الكرسيّ الحديديّ، وضعت ساقًا فوق أخرى، لكن لا فائدة، لم يُزَل الخدر منها، فكَّرت بالنهوض والتمشية قليلًا على سبيل قتل الوقت؛ لكن ما إن باشرت باتخاذ هذه الخطوة، حتى سمعت سعالَ الحارس جواري، التفتُّ نحوه لأرى النظرة الشرسة على وجهه المتغضن.

«ممنوع»

هذا ما قالته تعبيرات وجهه بوضوح، لم أكن أعلم لِمَ يُحدِّق بي، وكأنني أحد المتهمين القادمين للاستجواب، وكان بوسعي الجدال، أو التبجح بملء شدقي عن صلتي بالنقيب حمدي، وحقي في التمشية لا الانتظار كالمحكوم عليه بالإعدام هكذا؛ لكنني لم أكن في مزاجٍ رائقٍ بما يكفي للدخول في نقاشات؛ لذا ابتلعت ما أرغب بقوله، وعاودت الجلوس بصمت..

لم يمضِ على انتظاري هنا سوى ساعةٍ؛ لكنني كنت قد وصلت بالفعل لمرحلة لعن اليوم الذي قررت فيه العمل على هذا المشروع، مرورًا بلعن الضوضاء، ورائحة السجائر، والقيء والعرق، والشرطة وكافة مقرات الأمن، ثم لعن نفسي ولعن «حمدي»؛ لأنه السبب في جلوسي هكذا «بلا شغل ولا مشغلة» - كما يُقال - وانتهاءً بلعن البيروقراطية المصرية العقيم، التي اضطرتني إلى اللجوء

لمثل هذا الموقف اختصارًا لعددٍ لا يُحصى من الأيام أمضيها بين عددٍ من التصاريح الناقصة للأوراق المطلوبة، ومدام أشجان في شباك سبعة، التي تنتظر التخلص مني؛ لتفتك بقرص الطعمية جوارها، ثم السيد عاطف و«موده» الذي لا يسمح بإنهاء الأوراق بسبب شجار مع زوجته في المنزل، أو زميل المكتب الذي استعمل «شبشبه» دون علمه..

«إذا أردتَ إنجاز ما ترغب بإنجازه في أقل وقتٍ ممكنٍ؛ فعليك بالواسطة.. الواسطة صالحة لأي شيء، ابتداءً من شراء حذاء محترم في محل تجاري تعرف صاحبه، وانتهاءً بإنقاذ حياتك، الواسطة ثم الواسطة».. نصيحة قالها لي صديق غادر البلاد مع أول طائرة متجهة إلى كندا بعد التخرج.

في البداية ظننت أن كلماته محض كلمات انهزامية، لكن حين قررت التقدم إلى تلك المنحة التي طالما رغبت فيها، وجدتني مضطرًا للخوض في دائرة «الواسطة» لإنجاز ما أرغب بإنجازه قبل أن أصاب بالفالج!

و مَنْ يقدر على مساعدتي سوى صديق العمر حمدي؟ لجأت إليه، وها أنا جالس هنا ألتهم باطن فمي في انتظار السماح لي بمقابلته.

«بلد عقيم»..

قلتها بحنق وأنا أحدق في الأرض، ويبدو أن صوتي قد ارتفع عن الهمس دون أن ألحظ ذلك، فسمعت صوتًا خشنًا ذا بحَّة مُميَّزة يقول:

- عقيم فقط؟

التفتُّ متفاجئًا ليطالعني وجه «حمدي» الحليق بابتسامته الدافئة، ابتسمت بدوري، وأنا أزفر براحة، ونهضت مادًّا يدي بالسلام، لكنه احتضنني كمَن يستقبل أخاه بعد سفرٍ طال:

- أوحشتني يا «أبو حميد».

احتضنته بدوري وأنا أضحك، ثم ابتعدت ناظرًا إليه بعتابٍ:

- أتعلم كم من الوقت أمضيت منتظرًا في هذا المكان؟!

ملأت ضحكته الجهورية الممر حتى ظننت أن الطلاء قد بدأ يتساقط من فوق الجدران:

- أعلم.. لا تقلق! حضرتك لك تعويض مناسب!

أشار لي باتباعه نحو مكتبه؛ فحملت حقيبة الأوراق من على الكرسيّ المجاور، ومضيت في إثره دون أن أنسى إلقاء نظرة تشفٍّ على الحارس الواقف، وقد بدأت بالتفكير في أن الفرج آتٍ.. أخيرًا.

***

«أنت أحمق يا أحمد»!

قالها «حمدي»، وهو يُقلِّب بين أوراق متناثرة فوق مكتبه الكئيب؛ فابتسمت ببلاهة وأنا أحك مؤخرة رأسي، كنت أعلم أن بقية الأسطوانة قادمة، وبالفعل أكمل دون أن ينتظر ردي:

- دونًا عن كافة أقسام الطب.. ينتهي بك المطاف كطبيب لـ..

قطع جملته دون أن ينظر إليَّ، إنما حرك يده جوار رأسه دليلًا على الجنون، فعاودت الابتسام ببلاهة مصطنعة، وأنا أُعلق دون اهتمام:

- لا تقلق.. سمعت الرأي ذاته من زملائي، وأصدقائي، ومن مريم، ووالدتي.

بدا عليه اهتمام مفاجئ أدركت سببه حين رفع ذقنه المدبب من بين الأوراق ليحدق بي:

- بالمناسبة كيف حال مريم؟

رسمت على وجهي تعبيرات أشبه بـ «جيد لكن هذا ليس من شأنك»، لكنه أكمل بسماجة:

- ما زالت الأمور بينكما على ما يرام؟ صدقني أنا أعلم كم يمكن للنساء أن يصبحن غريبات الأطوار بعد أن يضمنَّ الخاتم في إصبعهن اليمنى، يتحوَّلن إلى شيء أشبه بـ....

- مولد الكهرباء.

قلتها مقاطعًا استرساله في الحديث، وأنا أتظاهر بالعلم ببواطن الأمور؛ علَّه يتوقف عن الحديث، لكنه تابع:

- مولد الكهرباء! كيف؟

بقي صامتًا للحظة كي يتمكن من تقليب التشبيه بصلعته اللامعة، وقد تحولت تعبيرات وجهه إلى ما يشبه مَنْ يعاني من إمساكٍ مزمنٍ.

زفرت قبل أن أبدأ بالتفسير:

- لا ضوءَ من دون ضوضاء.

ظلَّ حمدي واجمًا فترة، ثم انفكَّت أساريره فجائيًّا وبدأ يضحك.

بالطبع لم يكن التشبيه يحملُ أيَّ داعٍ لهذا الكم من الضحك، لكن هكذا «حمدي»، معه عليك تحمُّل نصف ساعة من الضحك، ثم نصف ساعة أخرى من تكرار الحديث مع الكثير من الدموع، وشظايا اللعاب التي لا تجد مرسًى لها إلا على وجهك..